جورج سالم

في الطريق الى الصحراء

استيقظ س. مبكرا على غير عادته ، فنهض من فراشه وخيوط الفجر الاولى لم تكن قد ظهرت بعد ، ثم ارتدى ثياب السفر ، والقى نظرة على غرفته بعد ان سوى فراشه ولحافه . ومال الى حقائبه الثلاث التي كان قد هيأها مساء البارحة ، فوضع واحدة على ظهره ، وامسك واحدة بكل من يديه ، واطفأ انوار المنزل كلها بعد ان القى نظرة اخيرة على الابواب والنوافذ ، واغلق باب الدار اغلاقا محكما ، وهبط درجات سلم البناية العالية التي يقيم فيها .

سار طويلا في شوارع البلدة شبه المقفرة ، اذ كان الناس ما يزالون نياما في تلك الساعة . وكان يلتقي بين الفينة والفينة ، في كل شارع ، بالحارس الليلي ، وكان بعض الحراس إما التقوا به يهزون رؤوسهم ويقولون :

« مسافر ، لا شك انه مسافر » .

ولم يكن س . ليوليهم اي انتباه ، وظل يغذ السير حتى بلغ مدخل البلدة الشرقي ، فتوقف قليلا يستريح ووضع حقائبه على الارض واقتعد حجرة كبيرة وراح ينظر الى الافق . كانت الشمس قد بدأت تشرق، فرأى ان هذا الصباح لا يختلف في شيء عن سائر الاصباح . وبعد هنيهة نهض وهو يقول في نفسه :

« يجب الا اضيع الوقت ، فالمسافة طويلة » .

وتابع مسيره . وقبل ان تغيب البلدة الصغيرة عن نظره ، التفت التفاتة اخيرة فلم توح له البلدة الغافية في احضان السهل باية عاطفة ، فمضى يجتاز الحقول المحيطة بالبلدة وسار طويلا حتى اختفت البلدة عن بصره نهائيا .

والواقع ان حقائبه الثلاث لم تكن تتسع لكل ما كان يريد ان يأخذه معه . فرأى نفسه مضطرا لان يترك كثيرا من اشيائه في المنزل ، واقتصر على ما رآه ضروريا له . ولا شك ان اختيار الاشياء وجمعها وترتيبها في الحقائب قد استغرق منه وقتا طويلا ، فلقد وضع في احدى الحقائب بعض ثيابه النظيفة ، ومعطفا وثوبا جديدا ؛ ووضع في الحقيبة الثانية ادوات الحلاقة والزينة ، وبعض الخبز والطعام ؛ كان يحمل هاتين الحقيبتين بيديه ،

الحقيبة الثالثة التي حملها على ظهره فقد وضع فيها اهم ما يحتاج اليه من كتب كان يحبها ويريد تجديد قراءتها ، كما وضع فيها ايضا اوراقه الخاصة وشهاداته ودفتر مذكراته وكراسات من الورق الابيض قدر انه قد يحتاج اليها لتدوين ما يخطر له . كل هذا بالاضافة الى اضمامة تشتمل على صوره مذ كان صغيرا حتى بلغ هذه السن ، وكان في هذه الاضمامة ايضا صور عائلته واقاربه ، وقد الصقت فيها على نحو جميل ، ضمن اطر صغيرة ملونة . والحق انه كان يحرص على هذه الاضمامة حرصا شديدا : ففيها اجمل ذكرياته ، وصور احب الناس الى نفسه .

قبيل الظهيرة ، احس س . بالجوع . فتوقف عن السير ، وجلس في فيء شجرة كبيرة وسط الحقول التي كان يجتازها ، ثم فتح حقيبته واخرج منها بعض الشطائر واكلها ، ثم شرب من ساقية كانت تسيل رقراقة المياه بالقرب من الاشجار الباسقة . كان يشعر بالتعب وود لو ينام قليلا . كان بحاجة ماسة الى قليل من النوم ، فقد تقلب كثيرا على فراشه ليلة البارحة قبل ان يوافيه النوم ، ولكنه آثر ان يتابع السير الآن ، على ان ينام في احد الحقول عند مغيب الشمس ، وبذلك يكون قد قطع مسافة اكبر . فليس في نيته ان يسير طويلا . وخطر له ان يترك احدى الحقيبتين ، ولكنه تردد طويلا في ذلك . لقد رأى انه ليس بحاجة الى هذه الحقيبة الكبيرة التي هدت ذراعه ، فما الفائدة من الثياب التي فيها ، وهل سيتاح له ان يرتدي هذا المعطف وذاك الثوب الجديد ؟ واقام فترة يحول بين نفسه وهذه الرغبة التي ابدتها في اطراح الحقيبة ، ثم لم يلبث ان اذعن لها ، فحسبه هذه الحقيبة التي تحتوي على الطعام وتلك التي تحتوي على الفكر والعلم . وقال في نفسه :

« ان ثوبا واحد يكفيني ، وليس يحتاج الكائن الحي الى كل هذه الثياب » .

وهكذا ترك الحقيبة ، آخر الامر ، في ظل الشجرة حيث كان يجلس ، وقام يتابع مواصلته . واحس ، حقا ، بانه تحرر من عبء ثقيل ، وراح وقد غدا اخف حملا يطوي الحقول بسرعة اكبر . وكان ينقل الحقيبة الثانية من يد الى اخرى عندما يشعر بثقل حملها .

حين غابت الشمس ، كان س . ما يزال يغذ السير . فقرر ان يتوقف كما بيت من قبل . ولكنه بعد ان تناول قطعة من الخبز كان زاهدا في اتمامها ، رأى من الافضل ان يتابع السير ، كأن ثمة سوطا يلهب ظهره . ومع انه كان في اشد الحاجة الى الراحة ، الا انه قام بعد هنيهة يتابع سيره . كانت يده التي حمل بها الحقيبة وقتا طويلا تؤلمه ، فتمنى لو ترك الحقيبة حيث اقام لكي يأخذها في عودته ، ولكنه فكر ان فيها الطعام وادوات الحلاقة والزينة . وهمهم في سره : اية حاجة له بالطعام والشراب ؟ فهو يستطيع غدا حين يصل ان

يستغني عنهما . اجل ، اما ادوات الزينة ... وضحك ملء فمه : كيف لم يفطن الى ذلك ، وفيم تحمل عناء حمل هذه التوافه ؟ فلتطل لحيته ما شاءت ان تطول ، اي ضير في هذا ؟ سيكسبه ذلك هيبة ووقارا .

وترك الحقيبة الثانية على قارعة الطريق . قال في نفسه : « ان الناس سيعثرون عليها وسيفرحون لهذا الغنم . فهم يحبون المغانم ، وكل غنائمهم من هذا القبيل . اما انا فلم اعد بحاجة اليها البتة » .

كان بدر صغير ينير شعاب الطريق ، وينعكس على اوراق الاشجار التي تتراقص في ضوئه . واعجب بهذا المشهد الجميل ، الا انه لم يشأ ان يتوقف طويلا ليتمتع به . كان على عجل من الوصول الى الصحراء التي نادته قبل حين فاستجاب لندائها . صحيح انها نادته منذ ابعد الازمان . منذ ان وعى نفسه . ولكنه ظل يؤخر الاستجابة لندائها حتى لم يعد يستطيع دفعا لهذا النداء .

اضحى مسيره الآن خفيفا ، وقد تحررت يداه كلتاهما . وانطلق بنشاط ورشاقة وراح يوسع الخطى . الا ان الحقيبة التي حملها على ظهره كانت تؤلمه بعض الالم ، غير انه كان على هذه الحقيبة حريصا ، فهو يضن بها ان تضيع وتفقد . ففيها اعمق ما جمع من تجارب ، وفيها شهاداته التي قضى سنوات طويلة كي يحصل عليها . ولكنه وجد ، عند منبلج الصباح ، انها تحني ظهره وتؤلمه . وفكر فيها مليا . اية فائدة من هذا العلم كله ؟ وهل يعادل متعة الصحراء التي تنتظره فيها ايام جميلة عذبة ؟ ثم ألم يعِ هذا العلم في صدره؟ ذكرياته ؟ انها محفورة في اعماق نفسه . وما كان للقرطاس ان يحتفظ بها كما احتفظ هو بها . واحس بغصة مؤلمة وهو يحل سيور الحقيبة التي شدها بها الى ظهره . ثم وضعها على الارض وهو يعلل نفسه بان من سيعثر على هذه الحقيبة بما فيها من كتب ثمينة وذكريات حزينة ووثائق هامة سيقدر صاحبها تقديرا كبيرا . ولكنه هز رأسه مستنكرا ، فلم تقع هذه الفكرة من نفسه موقعا حسنا . فهو يعلم ان الناس لم يقدروها حق قدرها وهو معهم ، فما الفائدة من تقديرهم بعد ابتعاد صاحبها وغيابه ؟ ثم اية فائدة من تقدير الناس هذا الذي ظل محروما منه ؟ انه لم يجنِ سعادة ولم يشعر بفرح قط ولم يتعلم الا شيئا واحدا وهو ان الكل باطل . ومن يدري ، فربما كان ما يبحث عنه متوفرا في الصحراء التي يقصد ، فليرمِ بها . لقد كانت عبئا اكثر منها خيرا وقيدا اكثر منها حرية . ومضى في طريقه لا يأبه بشيء .

كل ما يشعر به الآن هو الظمأ . وكان هذا الظمأ يلح عليه الحاحاً شديدا . أتراه يعثر على نبع يروي منه ظمأه ؟ ولاحت له من بعيد ينابيع عديدة ، فأمّها سريعا ، وغب منها

تماسك استطاع ، جرعات كبيرة عديدة . ورأى ان يمسح عرقه الغزير الذي تصبب منه دون ان يشعر به ، فغسل وجهه مرارا وغسل جبهته ورأسه ويديه ورجليه ، فاستشعر شيئا من النشاط . ولكنه لاحظ في الوقت نفسه امرا غريبا . أكان من فعل هذا النبع السحري ؟ ذلك بانه لم يعد يذكر اي شيء على الاطلاق ولم يعد قادرا على التذكر ، فقد غامت الدنيا في عينيه ، ولم يبقَ في ذهنه الا شيء واحد ، هو الصحراء . اما من اين جاء ، وماذا فعل بالامس وقبل الامس ، واين وكيف قضى ايامه ، واين اهله وذووه ، ومن هم ؟ فقد غامت هذه الامور كلها في عينيه ، ولم يعد يرى امامه الا الصحراء التي ينتظرها وتنتظره منذ امد بعيد موغل في البعد .

مضى س. لا يلوي على شيء . كان نداء الصحراء قد بلغ الآن حدا عنيفا قويا ، فلم يعد قادرا بعد على التوقف . ومع انه كان يشعر بحاجة الى كثير من الراحة بيد انه كان على ثقة بان الراحة آتية لا ريب فيها ، وها هي ذي الصحراء تلوح له من بعيد . ورغم انه كان يعلم انه لم يبلغها بعد الا انها بدت له قريبة قريبة ، حتى لكأنها تحيط به . ومع ذلك فقد كان عليه ان يسير ويسير . ثمة شيء واحد يضايقه وليس يدري كيف السبيل الى الخلاص منه . كانت ثيابه رغم قلتها وخفة وزنها تنوء عليه . وقدر س. انه ان نزع حزامه الجلدي وحذاءه فسيكون اقدر على السير والحركة . وعمد فعلا الى حزامه ففكه ، والى حذاءه وجواربه فخلعها والقى بها الى الارض . وما ان سار بضع خطوات حتى عاوده الشعور بالضيق ، حتى لكأن الثياب تكاد تخنقه . فراح يخلع سترته وقميصه وبنطلونه ، ورماها غير آسف عليها اذ كادت في الحق ان تخنقه .

انطلق س. يركض ميمما قلب الصحراء ، بعد ان تخلص من كل اعبائه بخفة الفراش او النسيم . لقد احس بانه اضحى قادرا على الطيران بعد ان تقطعت حبال متينة لم يكن يراها ولكنها كانت تشده الى الارض شدا قويا متواصلا . واخذ يجري في ارض منبسطة لا حدود لها ، والتفت خلفه فلم يرَ شيئا . لقد اختفت كل المعالم التي مر بها . كانت رجلاه الحافيتان تطآن ارضا رملية . فقال في نفسه :

« لقد وصلت الى الصحراء . لا شك انني وصلت ! »

وراح يلاحظ آثار اقدامه على الرمال ، فاعجبه منظرها . ولكنه فوجيء بالرياح تسفح سطح الصحراء فتغطي مواطيء اقدامه . وآلمه فعل الرياح وحز في نفسه غياب آثاره ، فراح يسير متعمداً رؤية آثار قدميه ثم يتوقف حزيناً ليرقب اختفاءها . ولاح له من بعيد نور ابيض يمتد على مدى الافق ، ورأى الماء الذي كان ظمآن له ، فحث خطاه نحوه ، ولكنه

لم يستطع ان يبلغه ، ومضى يبذل محاولة اثر محاولة للوصول اليه . ولكنه في كل مرة كان يبوء بالخيبة . وتساءل في نفسه : « ما هذا ؟ » وقدر انه اذا تابع السير للوصول اليه فسيقضي آلاف السنين دون الوصول الى ذلك. وانبعثت عنه تنهدة اشبه شيء بالحشرجة:

« يا الهي ! »

وسيطر عليه الخوف والفزع،فتسمر في مكانه يحملق في لا شيء . كانت كثبان صغيرة دقيقة من الرمال تنبسط في كل مكان حوله ، ومزيج من الخطوط المستقيمة والمتعرجة تملأ ساحة البصر امامه . اخذ العرق يتصبب منه ويسيل بغزارة على الرمال المتعطشة ، وكان عرقه احمر قانياً كأنه الدم .

ربتت يد مجهولة على كتفه وهتفت به :

« لا تفزع » .

وسأل دون ان يقصد احدا بالسؤال :

« هل وصلت ؟ »

لم يجبه احد . اذ ذاك وضع يديه امام فمه على هيئة بوق واعاد السؤال بمزيد من القوة حتى بدا كأنه يصرخ:

« هل وصلت ؟ »

فاجابه الصدى بعد هنيهة يكرر ما قاله :

« وصلت » .

احس باليد الصغيرة تربت على كتفه مرة ثانية وتهمس في اذنه بصوت عذب موسيقي النبرة :

« عليك الآن ان تخلع ثيابك » .

« ولكنني خلعتها » .

« اخلع الباقي منها » .

وتلفت س . حوله في خجل ، ولكنه لم يجد احدا ينظر اليه .

« لاتخجل ، انزع ثيابك وارمِها » .

وامتثل للامر بسرعة ، ثم تساءل في دهشة :

« كيف انا الآن ؟ »

اجابه صوت خفي انبعث هذه المرة من اعماقه :

« كما ولدتك امك » .

عادت اليد تربت على كتفه بهدوء :

« اخلع ساعتك . لماذا تحتفظ بها ؟ »

« ساعرف بها الزمان » .

« اخلعها، فلن يكون هناك زمان » .

خلع س . ساعته وطرح بها بعيدا .

« عليك الآن ان تصير حبة رمل » .

ففغر فاه مدهوشاً وقال :

« حبة رمل ؟ وكيف ذلك ؟ »

لم يجبه احد على هذا السؤال . قيل له في لهجة آمرة :

« اضطجع على الارض وتمدد بين اخوانك حبات الرمل الكثيرة » .

فصرخ يحتج :

« حبات الرمل اخواني ؟ »

« نعم ، نعم ، ستصير حبة رمل مثلهم » .

قال مستغربا :

« ولكنني كبير كبير، كيف يمكن ان اغدو حبة رمل واحدة صغيرة لا تكاد ترى ؟»

لم يسمع جوابا على سؤاله . فأضاف في شبه اسى :

« أهذه هي النهاية اذاً ؟ »

ولما لم يجبه احد ، امتثل للامر واضطجع على الارض . وخطر له سؤال اخير :

« كم يستغرق ذلك ؟ »

همس صوت في اذنه يقول في منتهى الرقة والهدوء :

« لن يستغرق ذلك الا بضعة ايام من ايام الرب » .

واغفى س.